بيروت

تاريخها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

القسم الخامس

مبادئ تاريخ بيروت

ثبت لنا من آثار بيروت انها مدينة في القدم حتى انها تضاهي عدم مدن الـ لكنَّ تاريخها لا يُعرف منهُ شيء. واهن يسبق القرن الخامس عشر قبل المسيح وهذا لعمري امرٌ يكفيها فخرًا وفضلًا على كثير من عواصم البلدان في البسيطة جمعاء.

ولا مراء في ان بيروت قبل ذلك العهد شاركت فينيقية في سرَّائها وضرَّائها في حُلوها ومرّها لاسيما في ما نالها من غزوات ملوك الكلدان الاوَّلين الذين احتلُّوا سواحل الشام وغارات القبائل الاموريَّة التي ضربت فيها اطنابها

امَّا تاريخها في عهد المصريين فكشفتهُ لنا دفائن ارض مصر منذ ٣٧ سنة فقط حيث وقف الاثريون على سجلَّات الملكين امينوفيس الثالث وابنهِ امينوفيس الرابع من سلالة الفراعنة الثامنة عشرة في القرن الخامس عشر قبل المسيح. وقد اكتُشفت تلك الآثار سنة ١٨٨٨ في تلّ العمارنة في جوار مدينة اسيوط في الفيُّوم حيث يوجد اخربة مدينة قديمة كان الفراعنة اتَّخذوها في ذلك الزمان كرسيًّا لمملكتهم ثمَّ استولى عليها الخراب فنُقدت آثارها ومن جملتها السجلَّات التي اكتشفها صدفةً احد الفلَّاحين وهي منقوشة بالحرف المساريّ على قطَع من الآجرّ. امَّا لغتها فهي اللغة الفينيقيَّة. وكان للفراعنة في دواوينهم نُقَلةٌ ينقلون لهم الى اللغة المصريَّة مضامين تلك الكتابات

وقد ورد في تلك الآثار اسماء بعض مدن فينيقية ومن جملتها اسم بيروت على صورة «بيروتا» وقد مرَّ في المشرق (٣ [١٩٠٠] : ٧٨٥–٧٩٤) لحضرة الاب لامنس فصل مستجاد في ما ورد عن لبنان في الآثار المذكورة . وهي عبارة عن مراسلات لأمراء وطنيين كانوا عمَّالًا للفراعنة كالولاة يُعرَفون باسم «خزَّانو» ويكاتبون مواليهم الملوك ويفيدونهم عما يجري في بلاد فينيقية الموكولة الى تدبيرهم ليكونوا على بصيرة من امرها

وكان اسم احد هؤلاء الولاة «كيب ادّي» أُقيم اميرًا على جبيل . وقد ورد في مكاتباته الى الفرعون اسم مدينة بيروت فيصفها كمدينة حرزة وكفرضة بحرية مهمة ويذكر سفنها التجارية وبوارجها الحربية ويروي انها خرجت لمحاربة بلاد أمُوري مساعدةً لأمير جبيل ريب ادّي فغلبتها

ومما جاء هناك ايضاً رسالتان لاحد امراء بيروت اسمهُ «أمُونيرا» يخبر فيها ملكهُ الفرعون عن خروجه لمحاربة اعداء الدولة بجيلهِ ورَجلهِ وعرَباته ويبشرهُ بفوزه بهم . وفي كلامه اشارة واضحة الى منعة بيروت في ذلك الزمان وعلوّ مقامها ورقيّ تجارتها وسعة ثروتها . على انَّ كلامهُ يُشعر بسيادة امير جبيل على بيروت

بقيت بيروت تحت حكم فراعنة مصر يحيا أهلها بحياة فينيقية ويرتعون مثلها في ظلّ الدولة المصرية وهي مصونة شمالًا بجبلها في مضيق نهر الكلب حيث رسَم رعمسيس الثاني سنة ١٣٨٨ ق م صورتهُ مع كتابة هيروغليفية تتضمَّن ذكر تقدمته لإلهه «فتاح» . وهناك صورة اخرى تمثل ايضاً احد فراعنة مصر بازاء الاله عشتون . ثمَّ صورة ثالثة يُرى فيها فرعون آخر منتصباً يقرّب قربانهُ لاله الشمس «راع» . وكان يصونها جنوباً وجود مدينتين عامرتين واسعتي الثروة والجاه اعني صيدا وصور كانتا تغيران اكثر منها مطامع الدول الكبرى . فكان خولها نجاةً لها . ولعلَّها اصابت نوعاً من الاستقلال في اواخر الالف الاول قبل المسيح في أيام حيرام الاوَّل وحيرام الثاني ملكي صور وفي عهد داود وسليمان ملكي اسرائيل

البحث السادس

بيروت في عهد الاشوريين واليونان

جيَّش الاشوريُّون جيوشهم في القرن التاسع قبل المسيح وزحفوا الى بلاد الحثيين

في جهات الفرات وشمالي سورية ثمّ اندفعوا كالسيل الجارف الى بلاد الشام وفينيقية ففتحها ملكهم سلمناصر الثاني (٨٦٠–٨٢٥ ق م) ثمّ غزاها بعده سلمناصر الثالث (٧٨١–٧٧٢) ثمّ اشوردان الثاني (٧٧١–٧٥٤) وتغلات فلاسر الثالث (٧٤٥–٧٢٧) ثم سلمناصر الرابع سنة ٧٢٥ ثم سنحاريب سنة ٧٠١ ثمّ ملك بابل نبوكدنصر الثاني (٦٠٦–٥٦٢) . ولم تسلم بيروت من غاراتهم كما تدلّ عليه الصور الخمس والكتابات المطموسة التي نقشها اولئك الغزاة على الصخور المشرفة على نهر الكلب . ومن المرجّح انّ بيروت عند مرورهم في أرباعها فتحت لهم ابوابها سلماً مفضّلة اداء الجزية مع الامان على فتحها عنوةً

وقامت بعد دولتي اشور وبابل دولة ماداي والفرس في اواسط القرن السادس قبل المسيح فبقيت فينيقية خاضعةً لحكمهم وكان الفرس يحسنون الى اهلها العاملة ويسعون الى تحسين تجارتها وملاحتها فاستعانوا بسفنها لفتح سواحل الشام وآسية الصغرى . وكانت بيروت راقيةً في صناعة السفن وتجهيزها لقرب الغابات والاخشاب الجيّدة من مرافئها فكانت سفنها مع سفن جبيل وصيداء وصور تؤلف اساطيل عظيمة مالت في خدمة ملوك فارس وماداي شهرةً كبيرة

وفي نقود بيروت ما يثبت قوّتها البحريّة وانها تمثل إله البحر بوسيدون (Poseidon) وهو بعل بريت واقفاً عند رأس السفينة في احدى يديه صورة الدلفين او احدى بنات البحر بَرُوَه (Beroe) وفي الاخرى الشوكة المثلثة . ومنها ما تمثله جالساً على مركبة تجرّها اربعة رؤوس من الخيل . فكل ذلك اشارة واضحة لمقدرة بيروت في النقابة البحريّة سواء كانت مجهّزةً للحرب او مستعضرةً للتجارة البحريّة

ولمّا انتقض حبل الدولة الماديّة اخذت المدن الساحليّة تسعى كلٌّ منها الى الاستقلال وتوسيع مملكتها بقهر جاراتها فكانت تتنازع الحكم على بيروت تارة جبيل وتارة صيدون . فكان البيروتيّون يجتهدون في استبقاء حرّيتهم او يجارون احوال الزمان الموافقة لمصالحهم . وانّما دين الجبيليين كان مؤثّرا فيهم فشاعت بينهم عبادة البعل وخصوصاً عبادة الإلهة عشترت التي تُرى صورتها على بعض نقودهم القديمة

ولعلّ ما اصابته صور وصيداء من العمران والرقيّ في القرنين السادس والخامس قبل المسيح كتشف نوعاً رونق مدينة بيروت فقلّما تجد لها ذكرًا في آثار ذلك العهد .

على انّ احد سيّاح اليونان المسمّى سيلاكس (Sylax) اتى الى فينيقية في القرن الرابع قبل المسيح وتجوّل في مدنها الساحليّة واجتاز بيروت فوصفها بهاتين الكلمتين قائلاً: «ان بيروت مدينة وموفأه» ولم يزد على ذلك شيئاً وبها نستدلّ على أنّ الخراب لم يستولِ على بيروت كما ظنّ بعضهم

الباب السابع

بيروت في عهد السلوقيين

سار اسكندر الكبير المقدوني المعروف بذي القرنين الى فتح سوريّة بعد انتصاره على الفرس في معركتي ايسوس في حدود سوريّة وقيليقية (سنة ٣٣٣ ق م) وإربيل في العراق (سنة ٣٣١) فاخضع سوريّة وغاصمتها دمشق وفينيقية ولم يُقم في وجهه غير صور الحصينة فملكها عنوة بعد ان حاصرها اربعة اشهر

ولا ريب في خضوع بيروت لسلطة الاسكندر كما يثبت ذلك ما ضُرب فيها من النقود باسم ذلك الفاتح الشهير(١ . ثمّ صارت بعد موته لخلفائه فملكها اوّلاً قائده بطلميوس صاحب مصر وانتزعها من يده سلوقوس فدخلت في مملكة السلوقيين ملوك الشام وعاد البطالسة فملكوها ولبعضهم نقود مضروبة فيها كبطلميوس الثالث أورغاتيس الاوّل (٢٤٧–٢٢٢ ق م) وكبطلميوس الخامس ابيفانيوس اي الشهير (٢٠٤–١٨١) الى ان صارت نهائيًا في حوزة السلالة السلوقيّة لمّا بسط انطيوخوس الثالث الكبير سلطانه على كلّ تخوم فينيقية بعد انتصاره على بطلميوس اوپاتور سنة ١٩٨ ق م الى سنة ١٧٥

وفي زمن هؤلاء الملوك السلوقيين خاصّة انتشر في بيروت وفي سائر فينيقية التمدّن اليوناني وشاعت بين الخاصّة اللغة اليونانيّة وتوفّرت في لبنان وسواحله الآثار الفنيّة المستعارة من اليونان كالكتابات والهياكل والأبنية الفخمة والتماثيل والحلي والأدوات الصناعيّة والنقود والصكوكات التي نشر كثيراً منها احد اساقفة مكتبتنا

١) اطلب كتاب نقود الاسكندر لمولّد L. Muller: Numismatique d'Alexandre p. 310

الطبي سابقاً الدكتور جول روفيه (D' J. Rouvier) خصّ الكل مدينةٍ جدولاً منفرداً بينها نبذة حسنة عن معسكوكات بيروت مع صورها وتاريخها اليوناني ٣١٢ ق م

وكذلك شاعت في بيروت وسواها حتى في أيام حكم الرومان الازياء اليونانيّة والديانة اليونانيّة والنقوش والكتابات اليونانيّة على النواويس حتى اسم بيروت ظهر بزيّه اليونانيّ (BHPYTOC او BHPYTIΩN). ومن كلّ ذلك عدّة آثار وجدت في بيروت وجوارها كما في غيرها من المدن الساحليّة وقد اخذ المتولّون نظارة الآثار يجمعون في متحف المدينة قسماً صالحاً منها. على انّ نقود بيروت الاولى التي ضُربت من السنة ١٩٨ الى ١١١ ق م قد كُتب عليها اسم بيروت باليونانيّة والفينيقيّة ثمّ اكتفوا بعد ذلك بالاسم اليونانيّ

ويستفاد من ضرب بيروت لنقودها كونها نالت في زمن السلوقيين نوعاً من الاستقلال منحهُ ملوك سوريّة لبعض مدن فينيقية وهو الاستقلال الاداريّ تحت حمايتهم. وقد عرفت بيروت لملوكها الشرعيين هذه المنّة كما يُروى ذلك في تاريخها ويحقّ لها ان تفتخر بهِ وقد اثبتنا الخبر في كتاب لبنان (ص ٢٣٥) بما معناهُ:

قام سنة ١٤٦ ق م رجلٌ اسمهُ اسكندر بالا (Alex Bala) يدّعي الملك لنفسهِ فنشبت بينهُ وبين الملك السوري ديمتريوس النسائي فيلاتور حروب وقعت فيها بيروت عن حقوق ملكها بشهامة ومروءة فكان الانتصار حليفاً لديمتريوس. ألّا انّ تريفون (Tryphon) وزير اسكندر بالا تحزّب بعد موت مولاه لابنهِ انطيوخوس السادس المسمّى ديونيسيوس ليجلسهُ على كرسيّ المملكة ويملك باسمهِ. ولعلمهِ بامانة بيروت واهلها للملكهم اغار على مدينتهم ليثأر منهم واخرب ابنيتها وحرقها بالنار سنة ١٤٠ ق م فذهبت ضحيّة وفائها. على انّ تريفون نال جزاءهُ بعد قليل فقلبهُ انطيوخوس سيداتس اخو ديمتريوس ومات طريداً خاملاً

وقد ذهب بعض المحدثين الى انّ بيروت بقيت على خرابها نحو مئة سنة واستندوا لاثبات رأيهم الى عبارةٍ وردت في كتاب الجغرافي اليوناني اسطرابون حملوها على غير معناها الصحيح وزعموا لتأييد رأيهم انّ الاثريين لم يكتشفوا اثراً لبيروت في تلك الحقبة. لكنّ الدكتور جول روفيه قد اماط القناع عن صحّة الامر وبيّن ان بيروت لم تبقَ على خرابها زمناً طويلاً ولعلّ تريفون لم يخربها تماماً. فعاد اليها اهلها ورمّموها

او جدّدوا بناءها واطلقوا عليها اسم لاوذيقية فينيقية او لاوذيقية التي لكنعان (١، ويثبت الامر عدّة نقود تمثل رمز بيروت اي عشترت على رأس سفينة مكتوب عليها هذه الحروف اليونانيّة (ΛΑΦ) مختصر «لاذيقية فينيقية» (Λαοδικεία ἡ ἐν Φοινίκῃ) كما رواها المؤرّخ ابيان (Appien) وفي بعضها باللغة الفينيقيّة (לאדך אש בכנען) وقد راجت هذه النقود بين السنتين ١٧٦ الى ١٢٣ ق م اعني مدّة ٥٣ سنة

ووقف الدكتور روفيه على اثر آخر يثبت رأيهُ في انّ بيروت لم تبقَ خراباً بل كانت عامرة. وذلك وزنٌ قديم لبيروت تاريخهُ سنة ١٢٨ ق م عليهِ شعار المدينة واسم محتسبها المدعوّ نيقون وكفى بذلك دليلًا على انّها كانت في ذلك العهد مدينة تجاريّة. وقد اثبت الدكتور صورة ذلك الوزن مع شرح كتابتهِ في اوّل عدد للمشرق في السنة الاولى (ص ١٧—٢٠)

لكنّ ما قالهُ جناب الدكتور روفيه في ثبات مدينة بيروت لا يصدق لهُ عن رأيٍ آخر حيث يقول انّ الذين عادوا فجدّدوا ابنية بيروت بعد خرابها عدلوا عن موقعها السابق القريب من نهرها الى الجنوب على بُعد نحو ١٠ كيلومترات فبنوها عند الخان الجديد بين وادي الشويفات ونهر الدير. وقد وجد هو في ذلك المكان آثارًا قديمة من مصكوكات يونانيّة ورومانيّة وخزفيّات ونقوشاً مختلفة وهو يزعم ان بيروت المستحدثة كانت هناك وعليها يُطلق اسم لاوذيقيّة كنعان. وهذا الرأي على ما نرجح ليس بصحيح فانّ بيروت بقيت في مكانها. أمّا الآثار المذكورة فتدلّ فقط على وجود بلدةٍ هناك وهي احدى المدن الصغيرة التي كانت تتوسّط بين بيروت وصيداء. وقد جاء في كتب جغرافيّي اليونان انّ عددها كان بالغاً نحو العشر بقي منها خلدة والدامور

وفي زمن السلوقيين اشتهر في جبيل اوّل مؤرّخ لبلاد فينيقية العلّامة سَنْكُنْ يَثُن البيروتيّ الذي بقي من تاريخهِ الضائع عدّة فقرات ذكرها لهُ فيلون المؤرخ مولود جبيل ونقلها اوسابيوس القيصري وكفاها بذلك فخرًا

---

١) راجع مقالة الدكتور روفيه التي عنوانها Une Métropole phénicienne oubliée ومقالة المسيو روسّل (P. Roussel) LAODICÉE, Métropole de Canaan في نشرة المراسلة اليونانيّة Bulletin de Correspondance hellénique, 1911, p. 535-446

ومع تغلّب اللغة اليونانيّة بين الطبقة الراقية من الشعب لم تزل الفيثيقيّة دارجة بين العامّة في بيروت ولبنان ولاسيما في داخليّة البلاد

وفي اوائل القرن الاوّل قبل المسيح ضعفت دولة السلوقيين باستلام ملوكها الى اللذّات ورفاهية العيش بعد الحروب الاهليّة المتشبة في ظهرانيها فاضطربت الامور ووقع الخلاف بين مدن السواحل فخاف الاهلون من الفوضى وذعروا ملوك ارمينية وغيرهم لتدبير الامور بينهم فقلّدوه الحكم عليهم وزعموا مدّة في ظلّ السلام. لولا ان بيروت وبخاراتها الشماليّة الى الرأس المعروف برأس الشقمة كانت معرّضة لغارات قبيلة الايطوريين الذين استولوا على ذلك الرأس وتحصّنوا فيه وكانوا يتجسّسون التوافل المجاورة من طرابلس الى بيروت فينتهبون منها كالسباع الضواري فيتهبون ويسلبون ويعودون بالغنائم الى مركزهم آمنين الى أن حاربهم القائد الروماني بومبيوس سنة ٦٣ وشتّت شملهم في البلاد (١ (الة صلة)

البعثة البابوية الى البلاد السوفياتية

بقلم حضرة الاب جان كابلر اليسوعي (تابع)

روستوف

بينما كنّا نستفد وسمنا في اسماء الجانين في محطّة القريم وكستودار كانت فرقة اخرى من الرهبان اليسوعيين الاسبانيين اتّخذت لها مركزًا لحلها مدينة روستوف الواقعة على ضفّة نهر دون (Rostow-sur-le-Don) وعندها مرفأ بحر ازوف. وكانت هذه المدينة قبل الحرب زاهرةً عامرة واسعة التجارة فاضحت بعد الحرب ملجأ لكلّ الاشقياء المتقاطرين اليها طلباً للقوت من وادي فولغا ومن معاملة تسارتسين (Tsaritsine) والاصقاع المجاورة لبحر قزوين

١) اطلب تاريخ الابطار في ما يختص لبنان من الآثار للاب لامنس (٢: ٢٦)